أصداف القواقع البحرية في مواقع ما قبل التاريخ في عمان: المدلول والمعنى

علي التجاني الماحي

ملخّص: يتناول البحث مدلول ومعنى أصداف القواقع البحرية التى كشفت الحفريات الأثرية عنها في مواقع ما قبل الميلاد في عُمان. ويعمل البحث على تعريف أنواع الرخويات البحرية وبيئتها الجغرافية، ثم يستعرض جميع المواقع الأثرية والتراكمات الصدفية في عُمان، خلال العصور الحجرية والبرونزية والحديدية. وبالنظر في مواقع ما قبل التاريخ في عُمان، يعمل البحث على تقييم استغلال الإنسان القواقع البحرية كطعام ومادة لصنع الأدوات والزينة الشخصية، كما يُسلط الضوء على المعتقدات التي ارتبطت بهذه القواقع. يستند البحث على الدليل الأثري وممارسات المجتمعات التقليدية في تناوله لهذه الجوانب المهمة التى قام الإنسان بها منذ العصر الحجري وعمل على توظيف القواقع فيها؛ فقد صنع الإنسان ومنذ القدم ثقافة للقواقع البحرية. وبهذا يعمل البحث على استعراض ما قام به الإنسان من توظيف هذه القواقع اقتصاديا وتقنيا وثقافيا، ودورها في حياة مجتمعات ما قبل التاريخ.

Abstract. *This paper examines the implications and significance of the marine shells retrieved from archaeological sites and shell-middens in Oman. It attempts to cast light on molluscs, their habitats and geography, and looks into the archaeological sites and shell middens in Oman during the Stone Age, Bronze Age and the Iron Age. The paper explores the use of molluscs for food, personal decoration, and tools, and discusses their relation to the people's spiritual beliefs. It uses the archaeological evidence and the practices of traditional societies. It is beyond doubt that man has made a culture for marine shells since early times. And this paper looks into how prehistoric groups used molluscs economically, culturally and spiritually in their life.*

مقدمة

كشفت الحفريات والمسوحات الأثرية في مواقع أثرية عديدة ومختلفة في العالم على بقايا أصداف قواقع بحرية. وكان استغلال الإنسان لأصداف القواقع واستعمالها موضع اهتمام، تناوله عدد من الباحثين، نذكر منهم على سبيل المثال: Beech et al. 2003; Mannino & Thomas 2002; Biagi 1987 - 1999; Carpenter et al. 1977; Fairbridge 1976; Yesner 1975; Meighan 1963; Frifelt 1971 and1959.

كان نصيب عُمان من هذه الاكتشافات واضح وبيّن في الكثير من المواقع الأثرية. وهذه المواد الأثرية سواء أكانت أصداف قواقع كاملة أم بقايا منها أم أدوات صنعت من تلك الأصداف، فإنه يُعثر عليها عادة في مستويين من المواقع الأثرية. المستوى الأول في الطبقات الثقافية cultural layers التي يجري تنقيبها في المواقع الأثرية أو في تراكم صدفي (shell midden). والطبقات الثقافية أو ما تحتوية مواقع تراكم أصداف القواقع ما هي إلا نتاج لنشاطات الإنسان، وتراكم مخلفات نشاطاته المختلفة في ذلك الحيّز المكاني؛ أي الموقع الأثري أو التراكم الصدفي (shell midden). أما المستوى الثاني الذي توجد فيه هذه الأصداف، فهو حزمة اللُقى الجنائزية grave goods داخل القبور التي جرى تنقيبها والكشف عن ما تحتويه. وهذه الأصداف تكون نتاجاً للدفن المتعمّد الذي قام به الإنسان. كما أنَّ هذا التواتر في الكشف والتوزيع الجغرافي لهذه الشواهد الأثرية، يدل على أن الإنسان تعامل مع القواقع أو الرخويات البحرية وأصدافها منذ بدايات العصر الحجري.

(ص ص ٢٧-٤٨) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

وفي عُمان انبرى عدد محدود من الباحثين في دراسة وفحوصات تفصيلية في أنـواع الأصـداف البحرية التي كُشف عنها في المواقع الأثرية في عمان، ودلالات وجودها في المواقع الأثرية (Coppa et al. 1985; de Cardi et al. 1979; de Cardi et al. 1977; de Cardi et al.1976, Durante and Tosi 1977; El Mahi 1999 and Mannino and Thomas 2002.).

كما أنَّ هناك شريحة من الآثاريين الذين يشيرون في تقاريرهم إلى أسماء القواقع البحرية التي كشفت عنها حفرياتهم أو أبحاثهم الآثارية. وهذه الإشارات لا يصحبها أي تفصيل لنوع بيئة هذه الكائنات البحرية أو دورها في حياة الإنسان الذي قام بجمعها. أما جُلَّ شاغل هؤلاء النفر، فلا يتمحور في تشخيص النوع، ونوع البيئة التي تعيش فيها هذه القواقع؛ بينما فسحت مساحة متواضعه للنظر في تفاصيل استعمال الإنسان لهذه القواقع ومدلولاتها في حياته المعيشية والثقافية. كما أننا نجد من الباحثين مَن انشغل بالبحث في استخدامات القواقع البحرية المختلفة وفي عمومياتها، من دون التركيز على أنواع من القواقع في مواقع أثرية بعينها. ونشير هنا إلى عدد من الأمثلة من الأعمال والباحثين الذين انبروا للبحث في أصداف القواقع البحرية ودراسة استعمالاتها في المواقع الأثرية في عمان والخليج (Salvatori, 1996; Saul 1974; Safer and Gill 1982; Stix and Abbot 1984 and Bourquin and Mayhew1999.).

وعليه، فهذا البحث ينظر في إمكانات استغلال الإنسان لهذه الكائنات البحرية في فترات ما قبل التاريخ. كما يبحث في مدلول القواقع التي عُثر عليها في المستويين (الطبقة الثقافية واللقى الجنائزية) في المواقع الأثرية في عُمان. وبهذا يُسلط البحث الضوء على أوجه استعمالات الإنسان قديما للقواقع البحرية، والفائدة التي يجنيها من ذلك، وإلى الرمزية والمعتقدات التي ارتبطت بها.

وفي حقيقة الأمـر، دائما يكون الدليل الأثـري الذي يُعثر عليه لهذه القواقع ناقصا، إلا في حالات بعينها، تكون مرتبطة بصناعة أدوات من المادة الصدفية للقواقع. وهذا البحث لا ينطلق من مناسبة غير مبرّرة، بل من إشكاليّة واضحة وحيرة علميّة مشروعة. فلا بُدَّ أنَّ الإنسان قد صنع ثقافة للقواقع البحرية، وجعل لها مكانا في حياته ومعتقداته، منذ أوقات مبكرة من العصر الحجري القديم. وعليه، يكون القصد من تناولنا لموضوع القواقع البحرية واستعمالات الإنسان المتعددة لها، هو توضيح مدلول ومعنى وجود أصداف هذه الكائنات الحية في المستويين (الطبقة الثقافية واللُقى الجنائزية داخل القبور) من المواقع الأثرية في عُمان. ويستند البحث في تشخيصه وتفسيره لأوجه استعمالات الإنسان للقواقع في العصر القديمة، على ممارسات المجتمعات التقليدية عملا بمباديء علم الآثار الإثنوغرافي Ethnoarchaeology.

وعليه يعتمد البحث في هذا الموضوع على دلالة القياس في تناوله لبقايا القواقع البحرية في المواقع الأثرية. فكما أشار أبو هلال العسكري (١٩٨٣: ٦٠-٦٢) بأن الدلالة ما يمكن الاستدلال به. وأن الدلالة على الشيء ما يمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها عليه. ومن هنا، يكون علم الآثار الإثنوغرافي Ethnoarchaeology معتمدا على دلالة القياس في مساهمته في تحقيق أهـداف علم الآثـار، كتفسير وتشخيص دلالـة الأنشطة الاقتصادية والفنية والتقنية والروحية التي مارسها الإنسان في فترات ما قبل التاريخ.

ينظر البحث أولا في مستوي الطبقات الثقافية cultural layers التي تم تنقيبها في المواقع الأثرية، وذلك بفحص استعمالات القواقع المختلفة وتشخيصها. ثم ينتقل إلى المستوى الثاني، الذي تكون القواقع البحرية فيه جزءاً من اللُقى الجنائزية grave goods، داخل القبور. كذلك يقوم البحث بمناقشة وظيفة هذه القواقع في حزمة اللقى الجنائزية، ومدلولاتها الثقافية. فجلُّ تقارير الكشف الأثري التي شخّصت هذه القواقع في مواقع أثرية مختلفة، لم توضّح لنا بجلاء ما إذا كانت هذه القواقع قد وضعت في القبور كجزء من الطقوس الجنائزية أم أنها ممتلكات شخصية دُفنت مع الميت. كما لم تخبرنا تلك التقارير، بشكل جليّ، فيما إذا كانت هذه القواقع أحفريات أو شبه أحفريات Fossils and sub fossils.

هذا النقاش يقودنا، بلا شك، إلى النظر في الفكر أو المعتقد الذي عمل على اختيار نوع معين من القواقع أو قواقع بعينها، ووضعها لتكون من ضمن اللقى الجنائزية،

والنظر في القواقع كعناصر ومكون مختلف في نوعه وشكله. ولكن قبل البدء في هذا الأمر، يتوجب علينا أن نُلقي نظرة على أنواع القواقع وبيئتها على الشؤاطىء البحرية في عُمان، ثم القواقع في المواقع الأثرية.

الرخويات البحرية ومواطنها البيئية

الرخويات البحرية هى كائنات حية لها أصداف أو قواقع تحميها. وعليه، فمصطلح «قواقع» يطلق على الرخويات وأصدافها أو كل على حدة. ومن ناحية أخرى، يؤكد الباحثون في علم اللافقاريات أن معظم القواقع بحرية، تمثل كائنات من أزمان بعيدة. ويُرَجّح بأنها قد ظهرت في العصر الجيولوجي المعروف بعصر البركمبريم Precambrium، والذي يعود تاريخه إلى ٦٥٠ مليون سنة (http://www.earthlife.net/inverts/mollusca.html) .

القواقع هي كائنات حية تعيش في المياه العذبة والمالحة وفي أطراف هذه المياة. والقواقع البحرية توجد على طول امتداد شواطىء البحار الدافئة، وحيث توجد بيئات بحرية لأنواع متعددة من القواقع. وتعد عُمان، بموقعها الجغرافي، غنية بتباين أنواع القواقع البحرية التي تعيش في البيئات البحرية على امتداد شواطئها من الخليج العربي وبحر عمان شمالا، وحتى بحر العرب في الجنوب من حدودها (الخريطة ١) .

جرى تشخيص المَواطن البيئية للرخويات في منطقة الخليج العربي وبحر عمان وبحر العرب، ووصفها، بواسطة فريق علمي أجرى بحوثاً في أنواع الرخويات وبيئها بقيادة الباحث Bosch والباحث (Dance Bosch et al. 1995:20-21). وتوصل الفريق إلى تشخيص المناطق البيئية الآتية:

١. الشواطىء الرملية المكشوفة في السواحل العربية الشرقية.

٢. الشواطىء الصخرية.

٣. الشواطىء المتأثرة بحركة المدّ والجزر Intertidal، وتكون عادة مسطحة ورملية ومتناثرة فيها الصخور والحجارة والأعشاب البحرية.

٤. غابات القرم Mangroves التي تنمو فيها أشجار

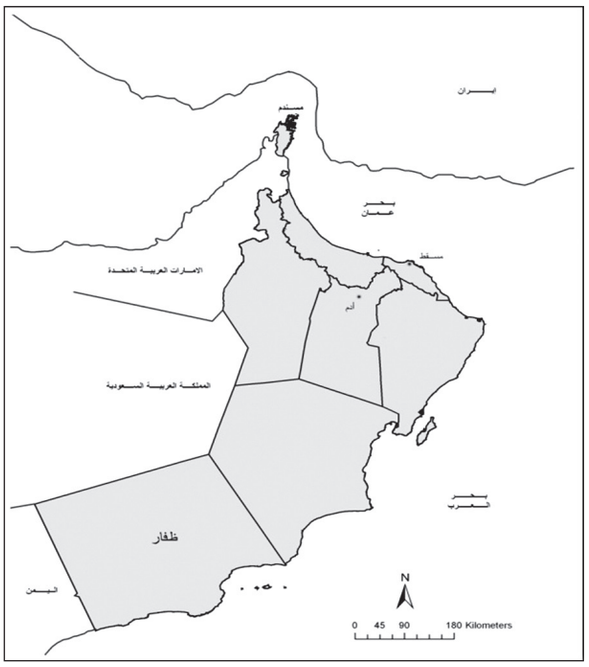

الخريطة ١: خريطة عُمان

القرم، وذلك في المناطق الساحلية المنبسطة. وتعمل ديناميكية المدّ والجزر والرمال والطين التي تحتجزها جذور أشجار القرم البيئة الحيوية فيها على توفير حياة الأسماك الصغيرة والرخويات بأنواعها.

وفي هذا الواقع البيئي، نجد أن المياه في الخليج العربي الذي يمتد لمسافة ٨٠٠ كليو متر، غير عميقة. فمتوسط العمق في الخليج العربي ٣٥ مترا ولا يصل حتى مائة مترا. وبما أنه غير عميق، فدرجة حرارته عالية وفي بعض الأحيان أعلى من درجة حرارة مياه بحر عُمان؛ فمتوسط درجة الحرارة فيه خلال فصل الصيف تصل إلى مائة فهرنهايت. كما أن درجة ملوحة المياه مرتفعة نتيجة لارتفاع درجة حرارتها، وقلة المياه العذبة المتدفّقة إلى الخليج. وترتب عن هذا الوضع أثر بين في الحياة الفطرية في الخليج العربي. فبعض أنواع القواقع لا تنمو بحجم رصيفاتها ومن النوع نفسه في بيئات بحرية أخرى قلّت فيها درجة الحرارة والملوحة. كما يجب الإشارة إلى أن هذا الوضع، ورغم كثرة القواقع، إلا أنها قليلة في تنوّعها في شرقي الخليج العربي (Bosch et al. 1995).

أما امتداد الشواطىء والجزر في بحر عمان وبحر

اللوحة ١: جزء من السواحل العمانية.

العرب (اللوحة ١)، فالوضع مختلف بحيث أن المكونات البيئية وظروفها تسمح بتطور الرخويات بشكل أفضل من الخليج العربي. إن رياح المنسون الجنوبية تدفع في بحر العرب وتوثّر في درجات الحرارة وتجعلها في انخفاض، خلال الفترة من يوليو إلى نهاية سبتمبر من كل عام. كما إن درجة حرارة المياه منخفضة في بحر العرب والشواطىء الجنوبية من عمان، وهي تعين على نمو الرخويات التي تستفيد من توافر مواد غذائها في المياه الباردة؛ وقد ترتّب على ذلك وجود أنواع متعددة من الرخويات المحلية (Bosch et al. 1995: 18-20).

وهناك الأنواع الرئيسة من الرخويات التي تعيش في منطقة مياه الخليج العربي وبحر عمان وبحر العرب(Bosch et al. 1995). وفيما يأتي تسمية الأنواع الرئيسة التي تعيش في الشواطىء العمانية:

- ثنائيات المصرع Bivalvia (اللوحة ٢).
- بطنية الأقدام Gastropoda (اللوحتان ٣، ٤).
- مزدوجات الأعصاب Amphineura .
- زولاقيات الأرجل Scaphopoda .
- راسيات الأقدام Cephalopoda

والشواطىء بما فيها من رمال وصخور وتضاريس، تعد مكوّن البيئات البحرية التي تأوي إليها الرخويات، وتعيش فيها وتتكاثر. وهذه الشواطىء جزء لا يتجزأ من البيئة البحرية الشاملة للبحر أو المحيط. وهناك عوامل طبيعية

اللوحة ٢: قوقع من ثنائيات المصرع Bivalvia
موقع بوشر(٢) القبر G32

اللوحة ٣: قوقع بطنية الأقدام Gastropoda
موقع بوشر(٢) القبر G31

اللوحة ٤: قوقع بطنية الأقدام Gastropoda عيّنة من الأحفريات من وادي الخوض- عمان.

physical factors تسمي وتحدد نوع ووفرة وتنوّع القواقع في كل بيئة بحرية وفي كل شاطئ بعينة. أولى هذه العوامل هي الرمال وطبيعتها، ثم الأمواج قوة وتواتراً، وأخيراً حالة المدّ والجزر في تلك البيئة البحرية. والقواقع تكثر في البحار الدافئة. وتوجد على امتداد الشواطىء الساحلية في عمان؛ مروراً من بحر عمان وحتى بحر العرب جنوباً (الخريطة ١). إذاً، القواقع البحرية يعتمد توفرها على المواسم وتبدّلها والحركة الديناميكية للمدّ والجزر والبحر وتياراته.

القواقع البحرية في المواقع الأثرية

كشفت المواقع الأثرية في عمان عن العديد من القواقع البحرية في شكلها كاملة أو أجزاء منها. والمواقع الأثرية المشار إليها تشمل المقابر (لقى جنائزية) والمواقع الأثرية والتراكمات صدفية (shell middens) . وعليه، تُعد أصداف القواقع البحرية دليلاً على نشاطات الإنسان في فترات ما قبل التاريخ، وهى دالّة عليه وعلى وجوده في مناطق ساحلية أو بعيدة عن السواحل.

التراكمات الصدفية

جرى التعرّف على التراكمات الصدفية (Shell middens) وتشخيصها كمحتوى أثري لمخلفات نشاط بشري في منتصف القرن التاسع عشر. ويرجع الفضل في الكشف عن هوية ومعرفة هذه التراكمات الصدفية للباحث وارسي (J.J. Waorsaee)، ومعه فريق الأكاديمية الملكية في كوبنهاجن (Cf. Hastings et al. 1975) .

والجدير بالذكر أن أصداف القواقع البحرية تحتوي نسبة عالية من مادة كربونات الكالسيوم. وتراكم هذه الأصداف في تكدس ولفترة زمنية طويلة في التراكمات الصدفية يؤدي إلى تفاعل كيميائي الذي يعمل بدوره على تحويل التربة إلى تربة قلوية (http://en.wikipedia.org/wiki/Midden#cite_ref-4);"Whaleback Shell Midden". Whaleback Shell Midden. Retrieved 2006-05-11) and (Dimbleby 1977:28).

وكما هو معروف في التفاعلات الكيمائية لظروف الدفن Taphonomy بأن التربة القلوية تُبطىء من تآكل المادة العضوية وتحلّلها، على عكس ما تقوم به التربة الحمضية. وعليه، فإن التربة القلوية التي تُسبّبها أصداف القواقع البحرية تُسهم في الحفظ النسبي لمخلّفات الإنسان العضوية (بقايا أدوات أو طعام من نبات أو حيوان) في الموقع. هذا التفاعل الكيميائي الذي يحوّل التربة إلى قلوية، من المعروف أنه يعمل على حفظ أصداف القواقع من التحلّل، بل يعمل على حفظها؛ الأمر الذي يسّر على الآثاريين تشخيص الأصداف في هذه التراكمات على الشواطىء والسواحل على أنها مخلّفات نشاط بشري عمل على جمع هذه القواقع البحرية والاستفادة منها كغذاء.

كشفت الحفريات الأثرية عن وجود تراكمات صدفية وعلى امتداد السواحل العمانية. ويوضّح الجدول (١) أسماء مواقع التراكمات الصدفية في الساحل العماني وتاريخها (Biagi 1988: 286-290).

وبالنظر لهذه الأعداد من مواقع التراكمات الصدفية، يتضح لنا مدى كثافة هذه التراكمات وامتدادها على السواحل العمانية. هذا ويجب أن لا يفوتنا أن هنالك أعداداً أخرى لم يُكشف عنها، أو ذهبت بفعل امتداد النشاطات التنموية على السواحل العمانية. ومن هنا، يتضح لنا حجم النشاط البشري في تكوين هذه التراكمات في فترات ما قبل التاريخ، وخاصة في العصر الحجري. وهذا بدوره يعكس لنا مدى إعتماد الإنسان الموسمي على القواقع البحرية كمصدر من مصادر الغذاء، إبان تلك الفترة.

كذلك نجد أن جلّ تاريخ هذه التراكمات الصدفية يعود إلى فترة الألف الرابعة من الحاضر. إلا إن هنالك مواقع تراكمات صدفية يعود تاريخها إلى فترة مبكرة عن الألف الرابعة من الحاضر؛ فموقع رأس الشقالة (١) Ra's ash Shaqallah يعود تاريخه إلى فترة جاءت قراءتها في (5920 + 60 BP و6040 +60 BP) من الحاضر. بينما موقع خور الجرامه (٤) (KJ4) (Khawr Jaramah 4 يعود تاريخه إلى 100 + 1780 BP. هذه التواريخ تعني امتداد هذا النشاط المختص بجمع القواقع ودورها الغذائي بين تلك المجموعات التي سكنت بالقرب من السواحل البحرية، وربطت معاشها واقتصادها بالموارد البحرية.

الجدول ١

م	اسم الموقع	اسم الموقع بالإنجليزية	نوع الموقع	التاريخ
١	يتي (YT1)	Yiti	تراكم صدفي	
٢	بندر الخيران	Bandar Khayran 4(BK4)	تراكم صدفي	5580 ± 50 BP
٣	بندر الخيران	Bandar Khayran 5(BK5)	تراكم صدفي	5700 ± 60 BP
٤	بندر الخيران	Bandar Khayran 7(BK7)	تراكم صدفي	5140 ± 70 BP
٥	بندر الخيران	Bandar Khayran 10(BK10)	تراكم صدفي	5720 ± 60 BP
٦	بندر الخيران	Bandar Khayran 11(BK11)	تراكم صدفي	5870 ± 60 BP
٧	خور ينكت	Khawr Yenkit (KT1)	أصداف مبعثرة	
٨	بندر الخيران	Bandar Khayran 12 (BK 12(	تراكم صدفي	
٩	رأس أبو داؤود	R as Abu Daud	تراكم صدفي	
١٠	خور الملح ١	Khor Milkh 1 (KM1)	تراكم صدفي	5130 ± 90 BP
١١	خور الملح ٢	Khor Milkh 2 (KM2)	تراكم صدفي	4970 ± 50 BP
١٢	دغمر ١	Dagmar 1 (DG1)	تراكم صدفي	4970 + 50 BP
١٣	ضباب	Bibab (DB1)	تراكم صدفي	5270 ± 60 BP
١٤	بمه	Bimmah 1 (BMH1)	تراكم صدفي	
١٥	الشاب	Ash Shab 1	تراكم صدفي	
١٦	بير بيرا	B'r Bira	تراكم صدفي	5850± 160 BP
١٧	صور ١	Sur 1	تراكم صدفي	
١٨	صور ٢	Sur 2	تراكم صدفي	
١٩	شياع	Shyia 3 (SHI3)	تراكم صدفي	4160± 60 BP 4040± 60 BP
٢٠	شياع	Shyia 5 (SHI5)	تراكم صدفي	
٢١	شياع	Shyia (SHI6)	تراكم صدفي	
٢٣	خور الجرامه ٤	Khawr Jaramah 4 (KJ4)	تراكم صدفي	1780 ± 100 BP
٢٤	خور الجرامه ٧	Khawr Jaramah 7 (KJ7)	تراكم صدفي	
٢٥	خور الجرامه ١٠	Khawr Jaramah 10 (KJ10)	تراكم صدفي	
٢٦	خور الجرامه ١١	Khawr Jaramah 11 (KJ11)	تراكم صدفي	
٢٧	خور الجرامه ١٢	Khawr Jaramah 12 (KJ12)	تراكم صدفي	4450 ± 60 BP 4740 ± 60 BP
٢٨	خور الجرامه ١٣	Khawr Jaramah 13 (KJ13)	تراكم صدفي	
٢٩	خور الجرامه ١٤	Khawr Jaramah 14 (KJ14)	تراكم صدفي	
٣٠	خور الجرامه ١٦	Khawr Jaramah 16 (KJ16)	تراكم صدفي	
٣١	رأس الحد ١	Ra's Hadd 1 (HD1)	تراكم صدفي	
٣٢	رأس الحد ٢	Ra's Hadd 2 (HD2)	تراكم صدفي	
٣٣	رأس الحد ٥	Ra's Hadd 5 (HD5)	تراكم صدفي	
٣٤	رأس الحد ٦	Ra's Hadd 6 (HD6)	تراكم صدفي	
٣٥	الدفة	A Daffah 2 9DFH2)	تراكم صدفي	5290 ± 100 BP
٣٦	رأس الخبة	R's al Khabbah 1 (KHB1)	تراكم صدفي	4850 ± 80 BP
٣٧	رأس الخبة	R's al Khabbah 2 (KHB2)	تراكم صدفي	
٣٨	رأس الخبة	R's al Khabbah 3 (KHB3)	تراكم صدفي	

٣٩	رأس الرويس	R’as ar Ru’ays (RU1)	تراكم صدفي	
٤٠	السويح ١	As Suwayh 1 (SWY1)	تراكم صدفي	
٤١	السويح ٢	As Suwayh 2 (SWY2)	تراكم صدفي	
٤٢	السويح ٤	As Suwayh 4 (SWY4)	تراكم صدفي	
٤٣	قميلة	Qumaylah 1 (QM1)	تراكم صدفي	
٤٤	رأس الجفن١	Ra’s al Jufan 1 (JFN 1)	تراكم صدفي	
٤٥	رأس الجفن٢	Ra’s al Jufan2 (JFN 2)	تراكم صدفي	
٤٦	رأس الشارق ١	Ra’s ash Sharik 1 (SHS 1)	تراكم صدفي	
٤٧	رأس الشارق ٢	Ra’s ash Sharik 2 (SHS 2)	تراكم صدفي	
٤٨	رأس الشارق ٣	Ra’s ash Sharik 3 (SHS 3)	تراكم صدفي	
٤٩	عويرب	Uwayrib (SHS4)	تراكم صدفي	
٥٠	عويرب	Uwayrib (SHS5)	تراكم صدفي	
٥١	رأس الشارق ٦	Ra’s ash Sharik 6 (SHS 6)	تراكم صدفي	
٥٢	رأس الشارق ٧	Ra’s ash Sharik 6 (SHS 6)	تراكم صدفي	
٥٣	رأس الشارق ٨	Ra’s ash Sharik 6 (SHS 6)	تراكم صدفي	
٥٤	رأس الشقالة ١	Ra’s ash Shaqallah (SAQ1)	تراكم صدفي	6040 ± 60 BP 5920 ± 60 BP
٥٥	رأس الجبش ١	Ra’s Jibsh 1 (JB1)	تراكم صدفي	
٥٦	رأس الجبش ٢	Ra’s Jibsh 2 (JB2)	تراكم صدفي	
٥٧	رأس الجبش ٣	Ra’s Jibsh 3 (JB3)	تراكم صدفي	
٥٨	رأس الحلات ١	Ra’s Halat 1 (HL1)	تراكم صدفي	
٥٩	رأس الحلات٢	Ra’s Halat 2 (HL 2)	تراكم صدفي	
٦٠	رأس شيراب ١	Ra’s Shirab 1 (SRB 1)	تراكم صدفي	4780 ± 70 BP 4850 ± 70 BP
٦١	رأس شيراب ٢	Ra’s Shirab 2 (SRB 2)	تراكم صدفي	
٦٢	رأس شيراب ٣	Ra’s Shirab 3 (SRB 3)	تراكم صدفي	
٦٣	رأس شيراب ٤	Ra’s Shirab 4 (SRB 4)	تراكم صدفي	
٦٤	رأس شيراب ٥	Ra’s Shirab 5 (SRB 5)	تراكم صدفي	
٦٥	رأس شيراب ٦	Ra’s Shirab 6 (SRB 6)	تراكم صدفي	
٦٦	رأس شيراب ٧	Ra’s Shirab 7 (SRB 7)	تراكم صدفي	
٦٧	رأس شيراب ٨	Ra’s Shirab 8 (SRB 8)	تراكم صدفي	
٦٨	حلميت	Halmit (HMT 1) 1	تراكم صدفي	
٦٩	راس هدود ١	Ra’s Hadud 1 (HDD1)	تراكم صدفي	
٧٠	راس هدود ٢	Ra’s Hadud 2 (HDD 2)	تراكم صدفي	
٧١	رأس الإقيت	Ra’s al Aqit (QT1)	تراكم صدفي	
٧٢	رأس خلوف	Ra’s Khaluf (KLF1)	تراكم صدفي	
٧٣	الشوعير ١	Shuwayr 1 (SHW1)	تراكم صدفي	
٧٤	رأس مدركة ٣	Ra’s Madrakah 3 (MDK 3)	تراكم صدفي	
٧٥	رأس مدركة ٤	Ra’s Madrakah 4 (MDK 4)	تراكم صدفي	
٧٦	رأس مدركة ٧	Ra’s Madrakah 7 (MDK 7)	تراكم صدفي	
٧٧	شربثات ١	Sharbitat 1 (SBT1)	تراكم صدفي	

هذا النظام الاقتصادي ما يزال موجودا في عمان إلى الوقت الحالي؛ فدراسة الآثار الاثنوغرافية التي قام بها الماحي (ElMahi 1999) على المنطقة الساحلية في عمان والمعروفة باسم (الباطنة) دلّت على أن سكان منطقة الباطنة الساحلية يقوم بحصد القواقع البحرية في مواسم معينة. وهذه القواقع تعد جزءاً لا يتجزأ من النظام الغذائي الموسمي. واستنادا لما جاء من تواريخ مواقع التراكمات الصدفية وممارسات المجتمعات المعاصرة في جمع القواقع موسميا ودخولها في نظامهم الغذائي، يمكن أن نرجّح أن مواقع التراكمات الصدفية في السواحل العمانية لم تكن مرتبطة بالعصر الحجري فقط، بل امتدت في العصرين البرونزي والحديدي والعصور التي تلتهما.

وإضافة إلى مواقع التراكمات الصدفية في السواحل العمانية، نجد أن السجل الأثري في عمان يشهد على امتداد وجود أصداف القواقع البحرية وفي تسلسل زمني بدأ من العصر الحجري وحتى العصرين البرونزي والحديدي. ويمكن استعراض نماذج من القواقع أو الحليّ أو الأدوات التي صُنعت من القواقع البحرية في العرض الآتي.

مواقع العصر الحجري

قدم العصر الحجري بجميع مراحله أدلة بيّنة على استعمال الإنسان للقواقع البحرية وأصدافها، ونجد أن الأدلة المكتشفة تمتد على طول السواحل العمانية. فقد عُثر في الموقع الساحلي (رأس الحمراء) في محافظة مدينة مسقط على قواقع بحرية وعلى حبات عقود متميزة صُنعت من القواقع البحرية (Durante et al. 1977:137-161). كما كشفت الحفريات في مقبرة من الموقع نفسه (أي رأس الحمراء الساحلي) على حبّات عقود، ودلاية للعقد، صُنعت من القواقع، وأسورة كذلك صُنعت من القواقع (Coppa et al. 1985: 99-98 & Fig. 1; plate 3). تجدر الإشارة إلى أن تاريخ هذه المقبرة يرجع إلى الفترة ما بين ٤٢٠٠ – ٣٣٠٠ سنة قبل التاريخ.

ومن ناحية أخرى، كشفت الحفريات الأثرية في إقليم ظفار في الجنوب الجغرافي لعمان على قواقع بحرية في عدد من المواقع التابعة للعصر الحجري الحديث. أما القبور التابعة للفترة نفسها، فقد كشفت عن نماذج حبات لعقود صنعت من القواقع البحرية في منطقة اسمها المهطفة (Matafah) من إقليم ظفار (Zarins 2001: 7-35). كذلك كُشف عن مواد مشابهة تمثل فترة العصر الحجري الحديث من منطقة عين حمران وصلالة. ومن ناحية أخرى يشير الباحث زرنس الذي نقّب في هذه المواقع (Zarins 2001: 417-418)، إلى أن نتائج كربون ١٤ المشعّ التى أرخت لهذه المرحلة من العصر الحجري الحديث في إقليم ظفار يرجع تاريخها إلى: 210 BP + 9280 و140 BP + 5820 و4910 BP + 70 و80 BP + 4760.

هذا، وقد عُثر على المزيد من الأدلّة في مواقع يعود تاريخها إلى العصر الحجري في عمان، ويلّخصها الجدول (٢):

الجدول ٢

م	اسم الموقع	المرجع
١	خور الملح ١	Philips and Wilkinson 1979
٢	الدفة	Biagi 1988
٣	رأس الحمراء RH5	Biagi P, Nisbet R. 1999
٤	خور الملح 1 KM1	Uerpmann and Uerpmann 2003
٥	بات	Brunswig Jr. 1989
٦	القرم North 1, QN1	Uerpmann and Uerpmann 2003
٧	رأس الحمراء 5, RH5	Uerpmann and Uerpmann 2003
٨	تل ساروك	Uerpmann 1992
٩	ساروك	Uerpmann and Uerpmann 2003
١٠	السويح 1 SWY Swy 2	Mery and Charpantier 2002
١١	السويح SWY 11	Charpantier et al. 200o
١٢	السويح SWY 1	Charpantier et al. 2003
١٣	وادي الوطية WW	Uerpmann and Uerpmann 2003

مواقع وقبور العصر البرونزي

كشفت الحفريات الأثرية في عمان عن حبات عقود، وخواتم صُنعت من القواقع وأصداف لقواقع بحرية في موقع طوي سيلايم وطوي سعيد في المنطقة الشرقية وفي مناطق ومواقع ساحلية أخرى (de Cardi et al. 1977 and de Cardi et al. 1979) وموقع شنه شرق عمان (Al Blueshi and ElMahi 2009). كما تم الكشف على هذه الأدلة الأثرية في مواقع أخرى في جغرافية متفرقة في عمان، يوضحها الجدول (٣):

الجدول ٣

م	أسم الموقع	المرجع
١	رأس الجنز (الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد)	Cleuziou and Tosi 2000
٢	رأس الجنز (الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد)	Cleuziou 2003
٣	راس الحد HD6 (الألف الثالثة قبل الميلاد)	Cartwright and Glover 2002
٤	راس الحد HD1 (الألف الثالثة قبل الميلاد)	Cartwright and Glover 2003
٥	راس الحد HD1 (الألف الثالث قبل الميلاد)	Cartwright and Glover 2004
٦	صلالة	Zarins 2001
٧	السويح SwY3	Mery and Charpantier 2002
٨	راس الجنز RJ1	Monchablo et al. 2003

مواقع وقبور العصر الحديدي

كشفت الحفريات الأثرية في موقع شنه بمحافظة مسقط على ثلاث عينات من أصداف القواقع الكاملة، هذا، إضافة إلى قطع صغيرة من بقايا أصداف القواقع. وجميع هذه العيّنات عُثر عليها ضمن اللقى الجنائزية في القبرين (BIG 6 and BIG 9) في موقع بوشر في مدينة مسقط (الجهوري والماحي ٢٠٠٧، والبلوشي والماحي ٢٠٠٨). كذلك عثرت الحفريات الأثرية في موقع محلي في أواسط البلاد وعلى ضفاف وادي عندام، على عينات مختلفة من أصداف القواقع البحرية في قبور عديدة يعود تاريخها إلى العصر الحديدي (ElMahi and Al Jahwari 2005). وفي أواسط عُمان كشفت الحفريات الأثرية في موقع منال الذي يعود للعصر الحديدي على عينات من أصداف قواقع البحرية (ElMahi and Ibrahim 2003). كما كشفت الحفريات الأثرية في موقع رأس الحدّ (HD21) في الساحل الشرقي من عمان على مجموعة من أصداف قواقع وأدوات صنعت من القواقع (Cartwright and Glover 2002).

ومن ناحية أخرى، نجد الأدلة لاستغلال هذا المورد البحري لا تختصر على المواقع الأثرية فقط، بل تشمل المدن مثل مدينة سمهرم في إقليم ظفار جنوبي عمان. هذا وقد كشفت الحفريات الأثرية في موقع المدينة – الذي يعود تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد – أن سكانها استخدموا أنواعا مختلفة من الأصداف البحرية (Wilkens 2002: 271-322؛ مكتب مستشار جلالة السلطان للشؤون الثقافية ٢٠٠٨: ٥٢).

الإنسان والقواقع البحرية

الباحث في شأن القواقع البحرية في المواقع الأثرية، يجد أدلة على استغلال الإنسان لهذه الكائنات البحرية وأصدافها على امتداد زمني وجغرافي في سواحل وشواطىء البحار الدافئة، وخاصة في الجنوب الكوني من الكرة الأرضية. وهذا الاستغلال الذي يسّرته البيئة الساحلية بدأ أولا لكون القواقع البحرية مصدرا للغذاء، عمل الإنسان على استغلالة منذ فترات ما قبل التاريخ وحتى يومنا هذا (Bailey 2004; Berger et al. 2013; ElMahi 1999).

والملفت للنظر براعة استغلال الإنسان للموارد الطبيعية في النظام البيئي الذي يعيش فيه؛ فقد نجح الإنسان في استغلال الموارد الطبيعية استغلالا كاملا، من دون أن يترك أي شيء يمكن الاستفادة منه. وهذا النهج يميّز الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى التي تشاركه النظام البيئي. فآكلات اللحوم مثلا تترك أجزء من فريستها، في حين أن الإنسان منذ العصور الحجرية، كان يستفيد من كل جزء من فريسته. فالقواقع التي جمعها الإنسان منذ ذلك الزمان البعيد، استعملها ووظّفها في أغراض مختلفة. ففي العصور ما قبل التاريخ استفاد منها في طعامه وأدواته

وزينته، وجعل لها ثقافة خاصة لأصدافها الفارغة والجافّة.

أثبتت المكتشفات الأثرية في عدد من المواقع في عمان أن الإنسان قد عمل ومنذ العصر الحجري على تصنيع واستعمال أصداف القواقع البحرية في أغراض متباينة وأدوات مختلفة كالسنارة لصيد السمك (Durante and Tosi 1977, Maggi 1984: Fig. 6, Biagi 1987:19; Philips & Wilkinson 1979: 110, P1).

كذلك عُثر على أدوات للزينة كحبّات العقود والقلادات المصنوعة من أصداف القواقع، استعملها الإنسان في تزيين نفسه بها، الأمر الذي نجده مستمراً في صناعة أدوات الزينة إلى يومنا هذا. ولكن أعظم ما في الأمر فقد صنع الإنسان ثقافة لهذه القواقع البحرية، تراوح من كل مجتمع إلى آخر. وهذا الثقافة الخاصة بالقواقع البحرية امتدت من المناطق الساحلية إلى مناطق بعيدة عن البحار وشواطئها، فنجدها تجتمع عليها بعض المجتمعات، بينما تتفاوت فيها مجتمعات أخرى، وما من شك في أن القواقع البحرية لعبت دورا كبيرا في حياة مجتمعات في مناطق جغرافية مختلفة.

وهنا، نستعرض استعمالات الإنسان المختلفة للقواقع البحرية، وكيف وظّف كل جزء من هذا الكائن البحري لخدمة غرض ما في حياته. ونتعرض في هذا المقام لاحتياجات الإنسان وأغراضه التى وظّف لها القواقع البحرية، مثل: الطعام، والتبادل التجاري، والعلاج، والمعتقدات، والزينة الشخصية.

الطعام

من أهم أسباب نجاح الإنسان في النظام البيئي، هو أنه قد تخصص في أن لا يكون متخصصا (الماحي ٢٠٠١). فالإنسان لم يتخصص في تأقلمه؛ وبالتالي لم يتخصص في طعامه، مثل سائر الكائنات الأخرى في النظم البرية والبحرية، ولم يعتمد على نوع واحد من الغذاء. بل ذهب الإنسان في استغلاله لمصادر الغذاء البرية منها والبحرية. وجعل غذاءه من النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة، وبذلك يكون الإنسان آكل للحم والنبات Omnivorous غير متخصص في غذائه، على عكس الكائنات المتخصصه في غذائها كآكلات اللحوم carnivorous وآكلات النباتات herbivorous. ولذلك، جاءت القواقع كجزء من الكائنات التى اعتمد عليها الإنسان في غذائه منذ أقدم العصور.

هذا، وقد تناول البحث العلمي أهمية دور القواقع البحرية في النظم الاقتصادية الغذائية التي اتّبعها الإنسان في فترات ما قبل التاريخ. لهذا، عكفت الجهود البحثية في دراسة الجوانب الآتية من القواقع التى عُثر عليها في التراكمات الصدفية والتي تحتوي على بقايا طعام الإنسان (Hastings et al. 1975).

١. دراسة القيمة الغذائية في القواقع البحرية المختلفة التي يمكن أن يستفيد منها الإنسان. وإسهام هذه القواقع البحرية في النظام الغذائي للإنسان في فترات ما قبل التاريخ. كذلك عكفت هذه الدراسات على تناول قياس وزن القوقع الواحد، أي الصدفة الفارغة، ومقارنتها مع وزن لحم الحيوان صاحب الصدفة.
٢. أساليب إعداد هذا النوع من الطعام.
٣. دراسة وسائل العمل الأثري وأساليبه في تنقيب التراكمات الصدفية واستراتيجية أخذ العينات قبالة إحصاء جميع القواقع التي يحتويها موقع التراكمات الصدفية.
٤. موسمية هذا المورد الغذائي خلال العام الواحد، آخذين في الاعتبار الطبيعة الطبوغرافية للشواطىء والتيارات المائية والمدّ والجزر وتوقيتها.

كذلك، لا يفوتنا أن تلك الدراسات والبحوث التي تخصصت في دراسة القواقع البحرية في المواقع البحرية وخاصة في الطبقات الثقافية واللقى الجنائزية، والتى أشرنا إليها في استعراضنا لأدلة أصداف القواقع البحرية في العصر الحجري والبرونزي والحديدي.

والثابت من جملة الدراسات والأدلة الأثرية والإثنوغرافية في عمان، أن المجتمعات التي عاشت على شواطىء البحر عملت على جمع واستغلال الموارد البحرية (الأسماك والقواقع)، والموارد البرية (الصيد وجمع

الثمار). وتشير هذه الأدلة إلى أن الإنسان لم يعتمد على مورد غذائي واحد (Biagi 1987; ElMahi 1999; Berger et al. 2013; ElMahi 2000). هذا وقد شملت حركة الإنسان ونشاطه الغذائي على جمع النبات البرية والقواقع البحرية، إضافة إلى صيد الحيوانات البرية والأسماك. والشاهد في القواقع البحرية كمصدر غذائي أن جمعها يتم على حسب نوع القوقع البحرية؛ فليس كل أنواع القواقع تصلح للطعام. وبالفعل فإن جمع القواقع يعد من أبسط النشاطات جمعا، وأسهلها في عملية جلب الطعام. ورغم هذا، يتطلب الأمر توضيح طبيعة وتنظيم هذا النشاط الغذائي القديم؛ أولا، طبيعة تنظيم هذا النشاط الغذائي الخاص بجمع القواقع البحرية؛ وثانيا، موسمية هذا النشاط وتوقيته المرتبط بوفرة القواقع البحرية في مواسم معينة.

ولمعرفة طبيعة تنظيم عملية الجمع وموسمية هذا النشاط وفهمهما، ولنلقي نظرة على الدراسة الميدانية التي قام بها الماحي (ElMahi 1999) للمجتمعات التقليدية التي تجمع القواقع البحرية وتعيش على شواطىء بحر عمان في منطقة الباطنة بالساحل العماني على بحر عمان. كشفت الدراسة أن جمع القواقع يتم بشكل منظّم ورئيسي كحصاد موسمي Seasonal harvest (ElMahi 1999). وأوضحت الدراسة نفسها أن هذا النشاط الموسمي يشترك فيه جميع أفراد الأسرة من رجال ونساء وأطفال. كما اتضح من هذه الدراسة الأثنوارکيولوجية، أن جمع القواقع يكون أكثر وفرة وعطاء في مواسم بعينها، الأمر الذي يعرفه معرفة جيدة مَن يسكنون هذه الشواطىء ويقومون بهذا النشاط الغذائي. وأمر آخر في غاية الأهمية، وهو أن هذا النشاط غير معقد، فهو لا يحتاج لأدوات أو معدات متخصصة، ولا يحتاج لمهارات خاصة. فهذا النشاط مجرد جمع يقوم به الجميع حتى الأطفال. ويكفي أي شخص يعرف الموسم والمكان والزمان أن يحصد هذه القواقع في موسم توفرها وكثرتها.

كذلك كشفت الدراسة (ElMahi 1999) أن هنالك أسلوب آخر متبع في جمع هذه الواقع من أجل الطعام. وعملية الجمع وهذا الأسلوب يتم فيها جمع القواقع بطريقة فردية وليس جماعية. أي أنه نشاط غير منظم وفي غير الموسم الذي تتوفر فيه القواقع. وهذا الأسلوب يمكن أن

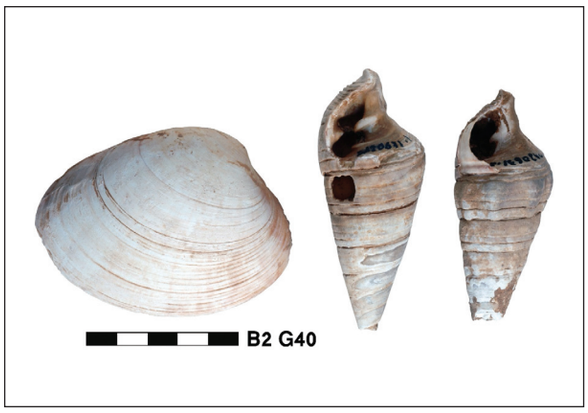

اللوحة ٥: قواقع بطنية الأقدام Gastropoda وقوقع من ثنائيات المصرع Bivalvia موقع بوشر (٢) القبر G40

اللوحة ٦: قواقع بطنية الأقدام Gastropoda وقوقع من ثنائيات المصرع Bivalvia موقع شنة في شرق عمان

نطلق عليه عمل ونشاط فردي وعشوائي دون المواسم المعروفة لجمع القواقع. ولا يفوتنا أن نقف قليلا عند نشاط ونتائج كل من الجمع العشوائي الفردي للقواقع وعملية الجمع الجماعي الموسمي المنظّم. فقد كشفت الدراسة الميدانية لاستراتيجية الجمع الغذائي الموسمي، أن حصاد القواقع البحرية في مواسم بعينها لا يتعارض مع النشاط الفردي العشوائي في غير المواسم المعروفة لوفرة القواقع (ElMahi 1999).

ومن ناحية أخرى، أوضحت دراسة ميدانية أخرى (ElMahi 2002) أن هناك جمعاً للقواقع، وبجهد فردي وعشوائي، وفي غير مواسم الجمع المعروفة، يمكن تشخيصه بالنشاط الغذائي العرضي Occasional diet.

هذا النشاط المرتبط بالغذاء العرضي، عبارة عن نشاط اقتضائي، تمليه الفرصة السانحة للإنسان، ومتى ما أتيت إمكانية اغتنام هذه السانحة، والاستحواذ على مادة غذائية أينما كانت؛ قوقعا أو طائرا أو حيوانا صغيرا أو حتى ثماراً برية. ونتاج هذا الغذاء والنشاط العرضي يعد وقتيا، إذ إن الإنسان يأكل ما يتحصل عليه في وقتها. أما الحصاد الناتج من العمل الجماعي والمنظّم وفقا لموسم وفرته، فأمره مختلف.

كما أوضحت الدراسة الميدانية (ElMahi 1999) أن حصاد القواقع موسميّ، تتبعه خطوات تنظيمية لاحقه. فالقواقع التي تحصد، تجمع ثم يتم وضعها في ماء فيه ملح، ثم تضع الماء في النار. وعندما تغلي الماء، تنفتح القواقع ويبرز منها الكائن الذي يسمى في منطقة سهل الباطنة الساحلي في عمان باسم (الدوق). يتم تجفيف (الدوق) في ضوء أشعة الشمس، ثم يجمع بعد ذلك. هذا الحصاد تتناول الأسرة بعضاً منه، ثم يُخزّن الباقي منه لأوقات لاحقة. كما أن جزءاً من هذا الحصاد يتم بيعه للمجموعات الرعوية أو البدو التي تقطن المناطق الداخلية والبعيدة عن البحر وسواحله (ElMahi 1999). ومن ناحية أخرى، كشفت الدراسة الميدانية نفسها، أن أصداف هذه القواقع يتم التخلص منها، بحيث لا تستعمل أو تترك أثراً لوجودها.

أمـران في غاية الأهمية يجب أخذهما في الاعتبار في تقييم دور القواقع الغذائية في المجتمعات التقليدية ومجتمعات ما قبل التاريخ، هما:

أولا: القيمة الغذائية للقواقع. إذ من المعروف عن القواقع البحرية أن قيمتها الغذائية ضعيفة، وقليلة السعرات الحرارية. وعليه فإن هذه القواقع البحرية لا يمكن أن تكون غذاء Staple diet رئيس يعتمد عليه الإنسان كلية. وما يرجّح هذا الرأي هو دراسة المجتمعات التقليدية التي ما تزال تمارس حصاد القواقع البحرية في شواطىء عمان (ElMahi 1999). فهذه المجتمعات لا تعتمد على القواقع بشكل كامل في غذائها، ولا تمثل في نظامهم الغذائي غذاء رئيسStaple diet .

ثانيا: نوع هذا الغذاء. كشفت دراسة المجتمعات التقليدية في عمان ومن بينهم مَن يقومون بجمع القواقع البحرية، أن هذه القواقع جزء من الغذاء الموسمي Seasonal diet الذي تحكمه المواسم وتمكّن الإنسان من جمعه وتناوله في مواسم معينة، كما أوضحت دراسة المجتمعات التقليدية. أما جمع القواقع في غير موسمها ومن دون تنظيم للنشاط وبحيث لا يكون في شكل حصاد، فهذا يعد نوعاً وجزءاً من الغذاء العرضي Occasional diet. أنه غذاء عرضي لأنه يتم الحصول عليه متى ما توفرة الفرصة أو الصدفة في الجمع، ولا يكون نتاجاً لعمل منظم ومخطط له.

كما أن هناك ما يدعم ممارسة المجتمعات التقليدية المعاصرة. فالأمر ليس مقتصرا على مجموعات الصيد وجمع الثمار المتحركة، بل إن المجتمعات المستقرة في فترات ما قبل التاريخ قد مارست هذا النشاط. إذ كشفت الحفريات الأثرية في عُمان أن سكان موقع مدينة سمهرم (القرن الثالث قبل الميلاد) في إقليم ظفار كانوا يستخدمون أنواعا مختلفة من الأصداف البحرية في الغذاء (Wilkens 2002: 271-322) و(مكتب مستشار جلالة السلطان للشؤون الثقافية ٢٠٠٨: ٥٢). فقد كشفت دراسة مخلفات مدينة سمهرم (Wilkens 2002: 322) والتي تم تنقيبها كميات من أصداف القواقع البحرية جديرة بالتوقف عندها. والشكل (١) يوضح النسب المئوية لمخلفات أصداف القواقع في الآتي:

- أصداف القواقع في المستوى الأول من الحفرية تمثل ٩٤٪ من المكتشفات.
- أصداف القواقع في المستوى الثاني من الحفرية تمثل ٩٥٪ من المكتشفات.
- أصداف القواقع في المستوى الثالث من الحفرية تمثل ٢٥٪ من المكتشفات.

وعليه، فإن هذا النشاط الغذائي والمورد البحري ليس قاصرا على مجموعات الصيد وجمع الثمار العصر الحجري القديم والوسيط أو مجموعات الزراعة والرعي في العصر الحجري الحديث. فكما وضحت التنقيبات ودراسة المواد الأثرية في موقع مدينة سمهرم بأن نسبة يقايا أصداف القواقع وصلت في الطبقات الأثرية للموقع إلى نسب عالية،

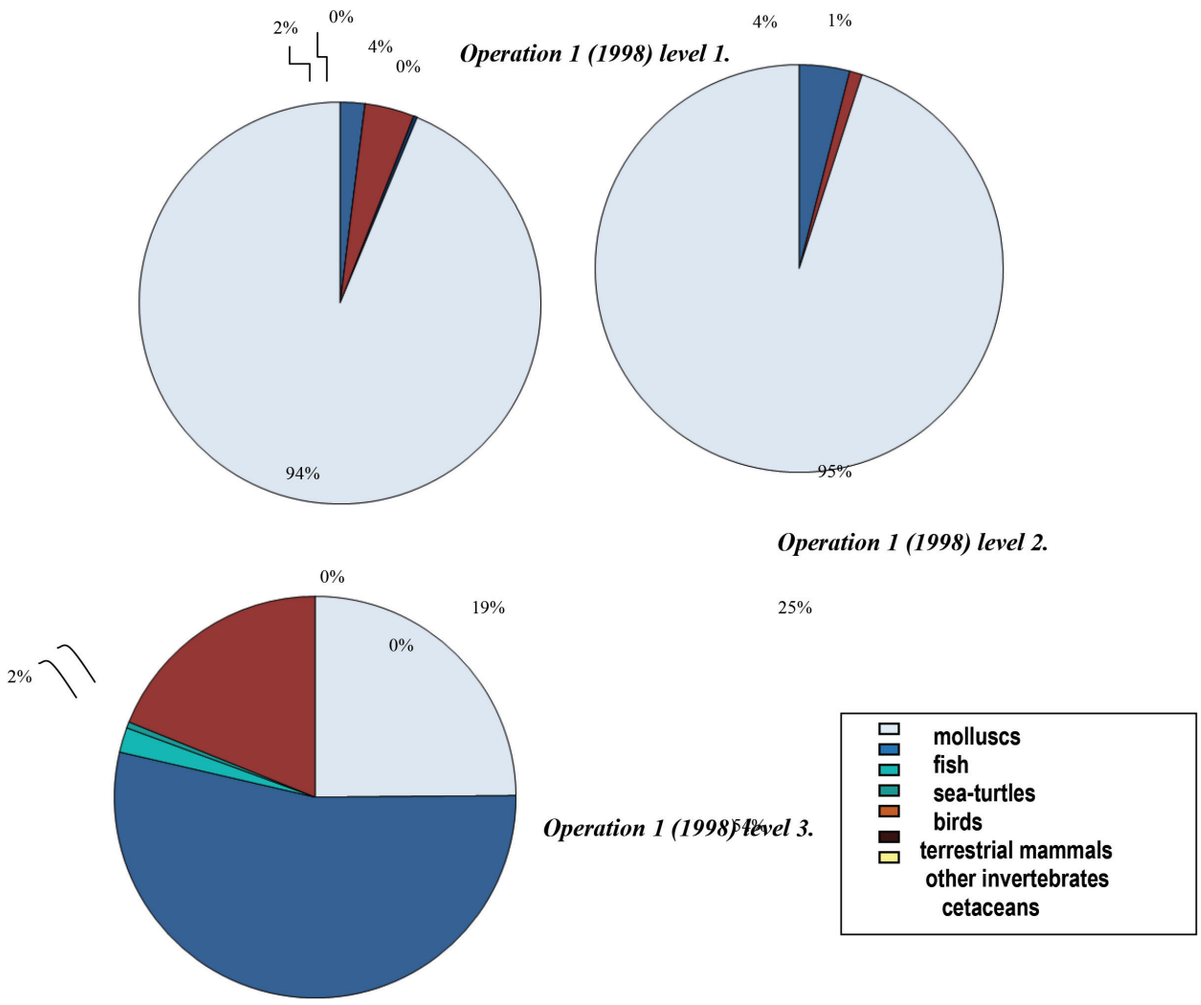

الشكل ١: After Wilkens 2002

مقارنة مع مخلّفات الأسماك والسحلفاء البحرية والطيور والحيوانات البريّة كما وضح الشكل (١) النسب المئوية لأصداف القواقع في مدينة سمهرم (Wilkens 2002: 322). ومن هنا، يتضح لنا أن للقواقع البحرية دورا بارزا في النظام الغذائي للمدن الساحلية. وهنا، نؤكد على المدن الساحلية، فالمدن التي تبعد عن السواحل البحرية لا نصيب لها في هذا المورد الطبيعي الذي تبعده عنها مسافات جغرافية.

القواقع البحرية والمعتقدات الروحية

إن وجود القواقع البحرية في قبور الموتى وضمن اللقى الجنائزية (Grave goods)يختلف اختلافا كاملا عن وجودها في الطبقات الثقافية Cultural layers التي يكشف عنها التنقيب الأثري. فوجودها داخل القبور يعني أنه دفنٌ متعمد لهذه القواقع ولأسباب يعلمها مَن قام بدفن الميت. ولا سبيل لنا في فهم حكمة هذه الممارسة وفلسفة المعتقد الذي يعززها، غير الاستنتاج والترجيح استنادا ورجوعا إلى مَن ينتجه التماثل Analogy بين ممارسات ومعتقدات

المجتمعات التقليدية ومعتقدات مجتمعات ما قبل التاريخ، ووفقا لمبادئ علم الآثار الثنوغرافي Ethnoarchaeology فكما هو معروف، فإن مجتمعات ما قبل التاريخ في عمان (العصور الحجرية والبرونزية والحديدية) لم تترك لنا أي أدلة توضيحية أو كتابات يمكن أن تفسر هذه الممارسات والجوانب الروحية أو غيرها من معتقدات مجتمعاتهم.

هذا الوضع يدخلنا في حيرة علمية مشروعة تفرض علينا عددا من الأسئلة الملحّة. وبالفعل، تبقي هناك أسئلة أساسية في شأن هذه القواقع البحرية ودورها وماهيتها الثقافية أو الروحية. أولى هذه الأسئلة: هل كان لكل نوع من القواقع البحرية ميزة أو ارتباط بمعتقد بعينة أو اعتقاد روحي خاص؛ بمعنى: أن هذا النوع يعني كذا ويسبب للميت كذا وكذا. وسؤال ثان يفرضه علينا واقع معرفتنا الحالية ورغبتنا في ما نريد أن نعرفه ونشخّصه: هل هذه القواقع زينة للميت؟ أم أن لها قيمة روحية له في مرحلة ما بعد الموت؟ فإذا كانت زينة للميت، فهل هى زينة في مرحلة الموت فقط، وليس زينة في حياة الإنسان؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي القيمة الروحية لهذه القواقع في مجتمعات ما قبل التاريخ؟ حيرتنا العلمية تزداد أكثر تعقيدا بالبحث في هذه الأسئلة وفي ظل الدليل الأثري المتاح. كما أنها تجعل مهمة البحث الأثري في فك رموز هذه القواقع أمر في غاية الصعوبة والجساوة، وخاصة في غياب كتابة، أياً كان نوعها (كتابة رمزية أو تصويرية أو صوتية) أو حتى مجرد رموز توضيحية. وانطلاقا من هذا الوضع ورغم الاسئلة الملحّة التي تخص هذا الشأن، لا يوجد غير اللجوء للنظر في ممارسات المجتمعات التقليدية.

بالنظر في ممارسات المجتمعات التقليدية نجد أن للقواقع البحرية جانب في غاية الأهمية في معتقداتهم، خاصة وأننا ندرك أن الإنسان كان وما يزال صانع ثقافة بارع. فالإنسان قد صنع ثقافة لكل شيء من حوله؛ صنع الإنسان ثقافة فهم ومعتقد معنوي ومادي للأشياء التى يتعامل معها، وحتى تلك التي لا يتعامل معها. ونجد اليوم أن القواقع البحرية في المجتمعات التقليدية وفي نطاق جغرافي كبير، قد ارتبطت بجملة معتقدات.

ونشير إلى مثال حيّ في الديانة الهندوسية في الهند التى تعد الجزء الأيسر من قوقع Turbinella pyrum مقدسا وله مكانة في المعتقدات الدينية الهندوسية. ونجد في مجتمعات مختلفة أن القوقع المعروف باسم الودع cowrie shell وهو من فصيلة الودعيات، (Cypraeidae) يعتقد بأنه فألٌ حسن، ويجلب الحظ، ويتسبب في السعادة لمن يتزيّن بها. كما يعتقد بأنه رمز لخصوبة المرأة، ولذا فيه تجلب الخصوبة للمرأة التي تتزين بها. كما أنه في منطقة كيرلا في جنوبي الهند ارتبط الودع بالتنبؤ وقراءة النجوم. أما حضارة موشي Moche القديمة في بيرو بأمريكا الجنوبية فإن الودع كان يرسم في الأشكال الفنية وتزيين الأدوات (Katherine and Museum 1997). ومن ناحية أخرى، هنالك اعتقاد قوي بأن هذه القواقع تعمل على الكفّ عن الشر وعين الحسد، لذلك يتزيّن بها الرجال والنساء والأطفال. ويزين بها كذلك الدواب كالخيل والإبل، كما هو الحال في القبائل العربية الرعوية في غربي السودان.

وكما هو معروف، فإن عادات الدفن والطقوس الجنائزية قد تغيرت وتبدّلت كثيرا. وفي حقيقة الأمر، حدث التغير الجزري والإندثار بعد انتشار تعاليم الرسائل السماوية وخاصة الإسلام في آفاق جغرافية ممتدة. فهذه الأديان أسست لمعتقد وفكر جديد، وضعت نظم وطقوس جنائزية لدفن الموتى، مما أدى إلى اضمحلال الطقوس القديمة وزوالها. إلا إن الممارسات اليومية كالمعتقد المرتبط بفكرة جلب الحظ والفأل الحسن وصد الشر وسوء الطالع استمر في التداول في المجتمعات التقليدية، أسوة بالمجتمعات التى لم تعتنق أياً من الرسائل السماوية.

الزينة الشخصية

الفن خيط رئيس في نسيج شخصية الإنسان؛ فالإنسان هو الكائن الوحيد في النظام البيئي الكوني الذي يزيّن نفسه، ويجمّل مظهره. ومنذ فجر البشرية، فإن طلب الإنسان للزينة دفع به إلى الاستعانة بمواد عديدة ومختلفة (جلود الحيوانات، وأنيابها، وعظامها وأصداف القواقع) في تحقيق تجميل مظهره. ففي العصر الحجري أستعان

الإنسان بالحجارة والنباتات وأعضاء وأجزاء من الحيوانات المختلفة وأصداف القواقع البحرية. أما في العصرين البرونزي والحديدي فقد استعان الإنسان بكل هذه المواد إضافة إلى خامَيْ النحاس والحديد. فالإنسان هو الكائن الوحيد في النظام البيئي الذي زيّن نفسه بحثاً عن الجمال والتميز. أخذ الألون من الطبيعة والمواد الجيولوجية المختلفة والنباتات والحيوانات ليُغيّر من مظهره، إذ هو الكائن الوحيد الذي يتذوّق الجمال. وهذا التزيّن الذي ذهب إليه الإنسان منذ بدايات العصر الحجري مردّه أن التزين والتجمل له أثره النفسي الكبير في الإنسان.

الأدلة الأثرية لاستعمال أصداف القواقع في الزينة تتعدّد بمساحة انتشار الإنسان الجغرافي على امتداد الشواطىء والسواحل البحرية؛ ففي عُمان كُشف عن العديد من القطع التي تم تصنيعها أدواةً للزينة، ويمكن إيجازها في الآتي:

عثرت الحفريات الأثرية في مقابرموقع رأس الحمراء في مدينة مسقط بعمان على قلادات مصنوعة من أصداف القواقع (Biagi 1989:22, Coppa et al. 1985: 97-102 and Durante and Tosi 1977). كما كشفت الحفريات الأثرية في موقع (بلد بني بوحسن) في سواحل شرق عمان على حلقات من أصداف القواقع يعتقد أنها خواتم. كذلك عثر في الموقع نفسه على دلايات طولية الشكل للزينة مصنوعة من أصداف القواقع (Cleuziou et al. 1990: Fig. 44-45).

وفي القبر رقم (RJ-6) من موقع رأس الحدّ كشف عن دليات للزينة يعتقد أنها صُنعت من أصداف (Cypraea sp. and Dentalium sp. The Joint Hadd project: Fig. 28 & 29).

أما سكان موقع سمهرم فقد كانوا يستخدموا أنواعا متعددة من الأصداف البحرية في الغذاء وصنعوا استخدامها في صنع أدوات للزينة، كالقلادات والخرز أو كقناديل (Wilkens 2002: 271322) و(مكتب مستشار جلالة السلطان للشؤون الثقافية ٢٠٠٨: ٥٢). وفي إقليم ظفار كشفت الحفريات في موقع متلفعة Matafah على مجموعة من اللُقى الجنائزية من بينها حبات عقود صنعت من أصداف القواقع (Zarins 2001: 35-7). كما كشفت الحفريات في موقع طوي سليم على حلقات للزينة مصنوعة من أصداف القواقع (de Cardi 1979: 79 & pl. 35b).

وتجدر الإشارة إلى أن هناك مثالاً متميزاً لاستعمال أصداف القواقع في مجال الزينة، ياتي من جنوبي بلاد الرافدين وفي منطقة الخليج العربي؛ إذ كشفت الحفريات في موقع تل الأبرق في دولة الإمارات (العصر الحديدي) عن قواقع تحتوي على قواقع من طائفة ثنائيات المصرع Bivalve بها مادة خضراء اللون يرجح بأنها تستعمل لزينة الإنسان (Thomas and Potts 1996: 13-16). هذا يرجح على دور القواقع البحرية في معتقدات مجتمعات ما قبل التاريخ والارتباط الروحي بهذه القواقع وتأثيرها للميت وعليه إلى ما بعد مرحلة الموت والفناء.

كما تجدر الإشارة هنا والحديث عن الزينة الشخصية، إلى أن أصداف القواقع كانت تستعمل في صناعة العطور "البخور" منذ فترات بعيدة في تاريخ الإنسان. فنجد كلمة أظفار Onycha وهى التسمية اليونانية القديمة لما يعرف بقشر كائنات بحرية مثل الأسماك أو الاصدف التى تعيش في البحر الأحمر؛ ففي ذلك الزمان كانت هذه الأصداف أو الأظفار تستخدم بوصفها عطراً ودواءً كما ورد في الكتاب المقدس (http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old Testament/Father-Antonious-Fekry/02-Sefr-El-Khoroug/Tafseer-Sefr-El-Khroug__01-Chapter-25-e-El-Bokhour.html).

ومن ناحية أخرى، نجد أن Onycha «أظفار» تعرف على أنها واحدة من مدخلات البخور الذي كان يستعمل في طقوس وممارسات العبادات عند اليهود . وأن المستعمل في صناعة البخور هو الغطاء الخيشومي Operculum في القوقع البحري .Strombus sp أو أنواع أخرى من ذات الطائفة المعروفة بطائفة بطينات الأرجل (Gastropoda Oxford English Dictionary 2009). وهذا الجزء من القوقع وتحديداً غطاؤه الخيشومي يعطي رائحة طيبة عندما يُحرق. والغطاء الخيشومي Operculum وُصِفَ بأنه لوح كلسي ملتصق بالقوقع، وإذا ما جذبته الرخوي يقفل

القوقعة وذلك تأمينا للكائن الرخوي بداخلها (Bosch et al. 1995).

وفي الحاضر، هناك مَن يقوم بجمع أصداف القواقع البحرية الميتة (الغطاء الخيشومي Operculum) التي تجرفها التيارات المائية في شواطىء الجزيرة العربية وشرقي إفريقيا. ولذلك نجد أن الغطاء الخيشومي للقواقع البحرية من طائفة بُطينات الأرجل تباع في أسواق دول الخليج والسودان كمدخل رئيس في صناعة البخور. وفي السودان تسمى «ضفرة»، وفي الخليج تعرف باسم « ضفران».

واستناداً لهذه المعلومات لا يستبعد أن مجتمعات ما قبل التاريخ قد استعملت هذا الجزء من القواقع البحرية في صناعة البخور؛ ففي مدينة كسمهرم (إقليم ظفار جنوبي عمان) لا يُستبعد أن تكون هذه الأجزء من القواقع قد استعملت في صناعة البخور. وما يُرجّح هذا الرأي هو أن سمهرم كتجمع سكاني من القرن الثالث قبل الميلاد، شهدت لها الحفريات الأثرية باستغلال القواقع البحرية كمورد للطعام ومادة لصناعة الحليّ. ولذلك لا يستبعد أن أهل سمهرم قد صنعوا البخور واستعانوا بالغطاء الخيشومي Operculum في القوقع البحري من طائفة بُطينات الأرجل.

التبادل التجاري

الأدلة على وجود القواقع البحرية في عُمان لم يكن حكرا على المواقع الأثرية الساحلية والمتاخمة لشواطىء البحار. بل كشف البحث الأثري عن أدلة للقواقع البحرية في العديد من المواقع التي تبعد مئات الكيلومترات عن السواحل البحرية، والتي لم يعتمد سكانها على البحر كمورد غذائي مباشر في حياتهم. ورغم ذلك احتوت اللُقى الجنائزية في مقابرهم على قواقع بحرية، إلا أن الحفريات الأثرية عثرت عليها أيضا في الموقع الأثري. وهذا يؤشر إلى دور لعبته القواقع البحرية في حياتهم اليومية، وبعيدا عن المعتقد الجنائزي الذي أشرنا إليه سابقا. ومن الأدلة المتاحة لدينا ما تم الكشف عنه في تنقيبات موقع شنه شرقي عمان. وهذا الدليل – أي وجود قواقع بحرية في التوزيع الأفقي والرأسي للقواقع البحرية – يرجّح أن هذه القواقع كان لها دور في حركة التبادل التجاري.

وما من شك في أن نطاق هذا التبادل التجاري للقواقع البحرية لم يكن مقصورا على المجتمعات التي تسكن في الشواطىء، وتلك التى تسكن في الواحات، وبعيدا عن الساحل في عمان؛ بل أن التبادل التجاري لابد من أنه تخطّى النطاق المحدود إلى مجتمعات تقطن بعيدا عن الشواطىء البحرية بمسافات شاسعة. هذا وقد تم إثبات هذا التبادل التجاري الواسع النطاق بالقواقع البحرية في أوروبا. فقد توصل الباحث سيفيريديس (Séfèriadès 2009) في دراسته للقواقع البحرية في أوربا على نتائج تشير إلى أن القواقع البحرية كانت عنصرا من عناصر التبادل التجاري. وعليه، انتقى عنوانا لنتائج دراسته يشير ويدلل على التبادل التجاري الذي أتخذ من هذا النوع من القواقع مادة للتجارة في أوربا آنذاك. وعنوان البحث هو (Spondylus and Long-Distance Trade in Prehistoric Europe) أي القواقع البحرية وتجارة المسافات الطويلة في أوروبا في فترات ما قبل التاريخ. كما أنه أشار إلى التداول التجاري الواسع لقواقع «الودع» (Cowrie shells Cypraeidae) في إفريقيا وبلاد الهند.

ومن ناحية أخرى، يشير الباحثان (Bourquin and Mayhew 1999) إلى أن فصيلة الودعيات أي «الودع» كانت تستعمل كعملة نقدية، وأن الشعب الصيني هو أول من استعمل هذه القواقع كنقود.

النقاش

أوضحت المسوحات والتنقيبات والدراسات الأثرية في عمان بأن المجموعات السكانية ومنذ العصور الحجرية قد ارتبطت بالبحر وموارده البحرية. كما أن شُحَّ الموارد البرّية (بعد الألف الثالثة قبل الميلاد) إذا ما قورن بالموارد البحرية، قد دفع بمجموعات للسكن في الشواطىء واستغلال الموارد البحرية. وعليه، فالموارد الطبيعية لعبت دورا واضحا في توزيع السكان وتمركزهم منذ القدم في عمان، كما يبين دليل المواقع الأثرية والتراكمات الصدفية

على امتداد السواحل العمانية.

ومن ناحية أخرى، نجد أن دور الموارد الطبيعية التي توفرها الجغرافية البيئية قائم وفعال إلى الحاضر في حياة المجموعات السكانية التقليدية في عمان. وبالفعل يوجد في أنحاء عمان مجموعات بدوية تسكن الشواطىء على امتداد الساحل العماني، تمارس وتعتمد في اقتصادها على صيد الأسماك وجمع القواقع البحرية (ElMahi 1999; 2011 and 2000). وفي حقيقة الأمر، لا يُعرف تاريخ هذه المجموعات، أو متى سكنت هذه الشواطىء، وانطلقت في هذا التأقلم البيئي المعروف لأهل عمان حتى يومنا هذا. فلا بد أن هذه المجموعات السكانية التي تمارس اقتصادا تقليدا وتعرف باسم بدو الساحل Coastal Bedouins مقارنة مع (Bedouins of the interior) سكنت هذه المناطق منذ زمن بعيد (ElMahi forthcoming). ولا يستبعد أن تكون امتداداً لمجموعات سكانية أقامت في هذه السواحل منذ فترات ما قبل التاريخ، إلا أن الدليل الأثري ينقصنا في تأييد هذا الرأي أو نفيه.

وفي هذا المقام، نقدم مثالاً جديراً بالاهتمام من منطقة جغرافية وبيئية مختلفة في أوربا خلال فترات ما قبل التاريخ. نستدل بهذا المثال على ديناميكية التفاعل البيئيي بين الإنسان والموارد الطبيعية. وهذا المثال يقدمه كل من الباحثان مانينو وتوماس (Mannino and Thomas 2002: 452-474). تناول الباحثان أثر مجموعات ما قبل التاريخ التى مارست الجمع والصيد في تدهور قطاع القواقع البحرية كالمورد طبيعي في مناطق بيئات المد والجزر. ومن ناحية أخرى، أثر استغلال القواقع البحرية في الاستقرار البشري وحركات التنقل والترحال، وانتشار الإنسان في ذلك الزمان من فترات ما قبل الميلاد. واعتمد الباحثان على ما دلّلت عليه دراسات البيئة الاثنوغرافية Ethnoecological studies، التي أثبتت أن نشاط جمع القواقع كان على مستوى ضئيل، مستهدفا نوعاً معيناً من القواقع، له أثر كبير في قطاع مجموعات هذا النوع في بيئة المد والجزر. ومن أهم ما أشارت إليه الدراسة هو المفهوم المتداول بين الأثريين، والذي ينظر للقواقع كمصدر غذائي ضعيف. وأن المواقع الأثرية لمكبات القواقع في فترات ما قبل التاريخ Shell middens، ما هى إلا مواقع مؤقته، أو موسمية. واستدلت الدراسة (Mannino and Thomas ibid) في تصويب هذا المفهوم، بنتائج حفريات مواقع مجموعات الصيد وجمع الثمار في العصر الحجري المتوسط Mesolithic، خلال منتصف عصر الهولوسين mid-Holocene، في الجزء المطل على المحيط الأطلنطي في أوربا Atlantic Europe. فقد كشفت هذه المواقع أن الطعام البحري (القواقع والأسماك) كان المكون الرئيسي في النظام الغذائي الإجمالي لسكان هذه المواقع. ومن هنا، انطلق كل من مانينو وتوماس (Mannino and Thomas ibid)، إلى ترجيح أن الحركة والتنقل أمر ضروري في استغلال هذا المورد البحري، الذي بدوره أسهم في انتشار هذه المجموعات في مناطق جغرافية جديدة على طول وامتداد الساحل البحري. وهذا ما أدى إلى انتشار سكاني على امتداد القارات.

يمكن القول والترجيح بأن الإنسان جعل وصنع أهمية للقواقع ورسم لها رمزية جمالية وعقائدية ودلالة روحية، الأمر الذي جعل لها موضعا بين اللُقى الجنائزية تصطحب الميت في رحلته. كما صنع منها قلادات وحلى يتزيم بها الإنسان الباحث عن الجمال في مظهره منذ العصور الحجرية القديمة. والرمزية التي تحملها القواقع في معتقدات مجتمعات ما قبل التاريخ، لا تكمن في حيوان القوقع، الذي أفرز هذه القوقعة، وغذاءها لتحمية. بل الاعتقاد يكمن في القوقعة وشكل الأصداف، بعدما يموت الحيوان الرخوي صاحبها. فالإنسان مَن صنع لأشكال القواقع ثقافة امتدت من تلك العصور البعيدة وحتى يومنا هذا بين المجتمعات التقليدية.

ويبقى تساؤل مشروع نتج من عمل الكاتب في التنقيب الأثري في عمان. والتساؤل هنا يدور حول لماذا كشفت التنقيبات الأثرية عن أصداف القواقع البحرية بكميات في التراكمات الصدفية والمقابر، من دون أن تجدها بالقدر المماثل نفسه في الطبقة الثقافية للمواقع الأثرية؟ بمعنى أخر، لماذا نعثر على القواقع بشكل أكثر في القبور

والتراكمات الصدفية، وليس في الطبقة الثقافية بالمواقع الأثرية؟

الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا الأخذ في الاعتبار ما يأتي:

أولا: علينا أن ندرك أن ظروف الحفظ داخل القبور أفضل من الطبقة الثقافية أو على سطح الموقع الأثري. إن التوزيع الأفقي للمادة العضوية التى خلفها الإنسان في الموقع الأثري، عرضة للتجوية (Weathering) وتأثيراتها. وعوامل التجوية تشمل على (الماء والرياح والتربة الحمضية والرطوبة النسبية ودرجة الحرارة وجذور النباتات والقوارض) التي تقوم بتحليل المادة العضوية وتؤثر فيها كيميائيا وميكانيكيا (الماحي ٢٠٠٢).

أما ظروف الحفظ والتحلّل والتحجّر (Taphonomy) داخل القبر فهي أفضل بكثير من المواد الموجودة في الطبقة السطحية للموقع الأثري أو في الطبقات الثقافية في التسلسل الرأسي للموقع الأثري. فهذه المواد وخاصة العضوية منها عرضه لعوامل التجوية المختلفة التي تعمل من دون توقف في تحليلها كيميائيا وميكانيكيا. أما التراكمات الصدفية (Shell middens)، فكما أسلفنا فهي تحتوي على نسبة عالية من مادة كربونات الكالسيوم التي تعد جزءاً لا يتجزأ من التكوين الكيميائي لأصداف القواقع والتي بدورها تحول تربة في التراكمات إلى تربة قلوية Alkaline. وهذا النوع من التربة يختلف عن التربة الحمضية في أن التربة القلوية تبطىء من تآكل المادة العضوية وتحلّلها. وانطلاقا من هذا الواقع نجد أن وجود أصداف القواقع داخل القبور والتراكمات الصدفية أوفر إذا ما قورنت بما تكشف عنه الحفريات الأثرية في المواقع الأثرية المفتوحة.

ثانيا: المجتمعات التي تعيش بعيدا عن البحر لا تعتمد في غذائها على القواقع، مثلما هو الحال في المجتمعات التي تسكن السواحل البحرية مثل موقع قريات (Phillips and Wilkinson 1982) وعلى امتداد السواحل العمانية (Biagi 1988). فالمجتمعات التي تقطن داخل عمان وبعيدا عن البحر، وعلى الرغم من أنها تعتمد في غذائها على الموارد البحرية، إلا أن الرخويات تصلها من الساحل من دون أصداف القواقع. فالمجموعات التي تسكن على السواحل هى التي تقوم بجمع القواقع البحرية وإعدادها وذلك بالتخلص من أصدافها، ثم تباع الرخويات وهى مجفّفة لسكان الواحات والمجموعات الأخرى داخل عمان (ElMahi 1999). وعليه، فجميع المواقع الأثرية في الداخل والتي تم التنقيب فيها أو دراستها لا تحتوي على شيء يُذكر من أصداف القواقع. ولكن هذا الواقع يجب أن لا ينفي أن مَن سكنوا المواقع المشار إليها داخل عمان تعاملوا إيضا مع أصداف القواقع البحرية، وذلك في شكل أدوات للزينة أو أدوات أو للتجارة.

ومن هنا، يتضح إسهام القواقع البحرية في المكوّن الغذائي للإنسان منذ العصور الحجرية وحتى ممارسة المجتمعات التقليدية المعاصرة في عمان، وكذلك دورها كمورد طبيعي في حركة الترحال الموسمية للإنسان. وتجدر الإشارة هنا إلى أن القواقع أو الرخويات البحرية ليس بالمورد الطبيعي المضمون، إذ أنه مورد يتذبذب عطائه من عام إلى آخر. فعطاء هذا المورد قد يكون وافراً أو شحيحاً. ويرجع تذبذب عطاء القواقع البحرية إلى أن هذا المورد الطبيعي غير مستقر، ويصعب التنبؤ بعطائه. ولا شك أن الموارد الطبيعية التي يكون شأنها هذا التذبذب تفرض على الإنسان أن يتبع حمية غذائية عرضية broad diet وتقوم وتعتمد على موارد طبيعية عديدة ومختلفة. وتكون هذه الموارد الطبيعية المختلفة متذبذبة في توفرها وعطائها، بحيث إذا فشل واحد من هذه الموارد الطبيعية، لجأ الإنسان إلى استغلال مورد طبيعي آخر، يقوم بتكملة وتغطية احتياجاته الغذائية.

ونذكر في هذا المقام، ما خلصت إليه الدراسة التي قام بها الماحي (ElMahi 1999: 51). فهذه الدراسة تشير إلى أن القواقع البحرية تمثل الغذاء التكميلي (a supplementary diet) في النظام الغذائي للمجتمعات التقليدية في عمان. وهذا يعنى أن القواقع البحرية لا تدخل في زمرة الغذاء الرئيسي للمحتمع staple diet. وإنطلاقا من ممارسات المجتمعات التقليدية في عمان رجحت الدراسة أن القواقع

البحرية كانت تمثل إيضا غذاءاً تكملياً لمجتمعات فترات ما قبل التاريخ في عمان. كما أشارت الدراسة إلى أن الغذاء التكميلي يشكل إسهاماً فعالاً في النظام الغذائي، فموارد الغذاء الرئيسي staple diet عرضة لأن تتناقص وتصبح غير قادرة على سد احتياجات الإنسان ومجموعته. وعليه، يقوم الغذاء التكميلي بسد النقص الناتج عن التقلبات الموسمية للموارد الطبيعية الأخرى. وبهذا يكون الغذاء التكميلي مكملا للغذاء الرئيسي. وعليه، فإن القواقع البحرية تعمل على دعم النظام الغذائي وجعله كاف ومستديم العطاء (ElMahi ibid).

كذلك خلص البحث إلى أن المواقع الأثرية في عمان احتوت على أصداف قواقع قام الإنسان بتوظيفها كمادة خام في صنع أدوات الزينة كالحليّ والقلادات، ثم صُنعة الأدوات مثل سنار صيد الأسماك وغيرها. ولا يفوتنا هنا أن الإنسان صانع ثقافة بارع منذ فجر الإنسانية، فصنع لهذه الأصداف رمزية جمالية وثقافة عقائدية وروحية لا نعرف عنها الكثير، إذ إنها ثقافة معنوية لا تترك لنا دليلاً أو أثراً يُفسّر حكمة المعتقد وفلسفته. ولكن من المرجّح أنه كانت لأصداف القواقع البحرية مكانة متميزة في مجتمعات ما قبل التاريخ، من حيث المعتقد الروحي والاجتماعي. وما يدلّل على ذلك وجود أصداف القواقع في مقابر مجتمعات ما قبل التاريخ التي جرى التنقيب فيها. ويبدو أن وجودها في حزمة اللقى الجنائزية يدلّل على أهميتها والاعتقاد في أنها من الأشياء التي يصطحبها معه الميت إلى ذلك العالم الذي رسمته المعتقدات الروحية والعقائدية في فترات ما قبل التاريخ. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أصداف القواقع البحرية التى كُشف عنها شرقي عمان وفي موقع سكني يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد يعرف باسم موقع شنة (Al Blueshi and ElMahi 2009) (**اللوحة ٦**). أما في موقع بوشر (الجهوري والماحي ٢٠٠٧ والبلوشي والماحي ٢٠٠٨) وغيرها من المواقع الأثرية في عمان، ليس من نوع واحد. والمقصود هنا يتضح من (**اللوحة ٢**) من موقع بوشر (٢) القبر G32 والذي عُثر فيه على قوقع من ثنائيات المصرع Bivalvia. أما القبر G31 من موقع بوشر (٢) ومن التاريخ ذاته عثر فيه على قوقع من طائفة بطنية الأقدام Gastropoda (**اللوحة ٣**). ومن ناحية أخرى، كشفت الحفريات في القبر G40 في موقع بوشر (٢) على قواقع بطنية الأقدام Gastropoda، وقوقع من ثنائيات المصرع Bivalvia (**اللوحة ٥**). وعليه، ليس هنالك نوع أو طائفة واحدة من أصداف القواقع البحرية مرتبطاً بالمعتقدات الدينية، الأمر الذي يجعلنا نرجّح أن كل أنوع القواقع من طائفة (ثنائيات المصرع Bivalvia وبطنية الأقدام Gastropoda) مرتبطة بمعتقد معين في جملة معتقدات مجتمعات ما قبل التاريخ.

وكما أسلفنا فإن مجيء الرسائل السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلام) وانتشارها وتأثيرها على المجتمعات الإنسانية المختلفة، انقطع معتقد وفكرة اللقى الجنائزية برمتها. وبهذا سقطت أصداف القواقع البحرية من ممارسات المعتقد الروحي والديني برمته. وهكذا انقطاع التقليد الخاص بالقواقع في حزمة اللقى الجنائزية، وأسبابه. وأهم ما في الأمر أنَّ هذا التحوّل أساسه التحوّل في العقائد، وليس في تقاليد هذه المجتمعات وثقافتها وممارساتها.

ورغم مرور القرون، وانقطاع أصداف القواقع البحرية عن ممارسة الإعداد الجنائزي للموتي، تظل مكانة أصداف القواقع باقية في المعتقدات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات التقليدية المعاصرة. كما تظل إلى الحاضر أصداف القواقع البحرية تعويذة لرد العين الساحرة، وتميمة لجلب الحظ وقراءة معالم المستقبل. والأعجب ما في الأمر، نجد أن هذه الأصداف تحتل مكانة بارزة في المعتقدات الاجتماعية لمجتمعات تقليدية لا علاقة لها بالسواحل البحرية أو مواردها البحرية وتبعدها عنها آلاف الكليومترات. ومن أبرز الأمثلة التى نستطيع تقديمها في هذا المقام قبائل البقارة المعاصرة غربي السودان. فنجد أن أصداف القواقع تستعمل كتمائم لرد شر العين الساحرة. وهذه القبائل الرعوية التي لا تعرف عن البحر أمرا، تزين وتحمي خيلها ومنازلها بأصداف القواقع وخاصة القوقع المعروف باسم «الودع» Cowrie shell .

وأخيراً، نظر البحث في أنواع القواقع ككائنات بحرية،

والبيئة البحرية وجغرافيتها التي تعيش فيها على امتداد السواحل العمانية، ووجودها في المواقع الأثرية المختلفة. وسعى البحث في تسليط الضؤ على دور القواقع في الحياة الاقتصادية للمجموعات القديمة بدأ من العصور الحجرية وحتى العصر الحديدي. كما استعرض البحث إسهام القواقع البحرية في النظم الغذائية والزينة وصناعة الأدوات في فترات ما قبل التاريخ، وأهميتها في حزمة اللقى الجنائزية. وعلى الرغم من هذا لا نملك إلا أن نعترف بمحدودية الدليل الأثري في إفادتنا بممارسات الإنسان قديما ومحتويات وتوجهات ثقافته واقتصاده ومعتقداته.

أ. د. علي التجاني الماحي: قسم الأثار، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، الخرطوم، السودان.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية

البلوشي، محمد، وعلي التجاني الماحي، ٢٠٠٨، «جغرافية الموقع وثقافة المكان: نتائج حفريات موقع بوشر، سلطنة عمان»، **أدوماتو** يناير .ص ٧-٣٤.

الجهوري، ناصر ، وعلي التجاني الماحي، ٢٠٠٧، «حفريات موسم ٢٠٠٧م فى موقع بوشر، سلطنة عمان: دور الموقع والمصادر الطبيعية فى نشأة المستوطنات»، **أدوماتو** ص ٧-٤٠.

الماحي، علي التجاني ٢٠٠١، «استئناس الحيوان والتحولات الإحيائية البيئية والاقتصادية الثقافية: فلسفة الدليل والاستنتاج»، **أدوماتو** العدد الرابع، يوليو، ص ٢٧-٥٤.

الماحي، علي التجاني، ٢٠٠٢، **مدينة بات وعوامل التجوية منذ الألف الثالث ق. م، عبري عبر التاريخ ٢٠٠٢م**، وزارة التراث والثقافة.

سمايث، :اثلين ١٩٨٣، **الأصداف البحرية بحظيرة السلطان قابوس الطبيعية بالقرم**، أنترناشيونال يريس المحدودة – سنغافورة.

مكتب مستشار جلالة السلطان للشؤون الثقافية ٢٠٠٨، **خور روري (سمهرم)**، مسقط - سلطنة عمان

ثانياً: المراجع غير العربية

Abbot, T. 1975. **Kingdom of the Seashell,** Crown Publishers, London.

Al Blueshi, M. and ElMahi, A.T. 2009. "Archaeological Investigations in Shenah, Oman", **Proceeding of the Seminar of Arabian studies**. 39, Pp. 43-56.

Bailey GN. 2004. "World prehistory from the margins: the role of coastlines in human evolution," **J. Interdiscipl Stud Hist Archaeol** 1:39–50.

Beech, M.; Hogarth, P. and Philips, C. 2003. "Zooarchaeological Evidence from Trade in Marine Resources in South-East Arabia". In: E. Olijdam and R.H. spoor (eds.), **Studies in commemoration of E.C.L. During Caspers (1934-1996)**, Bar International series 10xx.

Berger J-F, Charpentier V, Crassard R, Martin C, Davtian G, Lopez-Saez JA. 2013. "The dynamics of mangrove ecosystems, changes in sea levels and the strategies of Neolithic settlements along the coast of Oman (6000-3000 cal. BC)", **J. archaeol Sci**. 40:3087– 3104.

Biagi P. 1985. "Excavations of the aceramic shell-midden of RH6, Qurum, Muscat", **East and West** (35\4).

Biagi P. 1987. "The prehistoric fishermen settlements of RH5 and RH6 at Qurum, Muscat, Sultanate of Oman", **Proc. Sem. Arab Stud**. 17: pp. 15–19.

Biagi P. 1988. "From East and West. Surveys along Oman Coast: Preliminary Report on the 1985-1988", **Campaigans**. Vol. 38 – Nos. 1 -4 (December 1988). IsMEO.

Biagi P. Roberto, M. and Renato, N. 1989. "Some Aspects of the 1982-1985 excavations at the aceramic

coastal settlements of RH5 at Qurum (Muscat- Sultanate of Oman)", **South Asian Archaeology,** Aarhus 1985. Pp. 1-8. (Eds.) K. Frifelt and P. Sorenson. Curzon Press. London.

Biagi P, Nisbet R. 1999. "The shell-midden sites of RH5 and RH6-Muscat, Sultanate of Oman", **Archaeologia Pol** 37:31–47.

Bosch, D.; Dance, S. P.; Moollenbeel and Oliver, P.G. 1995. **Seashells of Eastern Arabia.** (ed.) S. Peter Dance. MOTIVATE Publishing, Dubai.

Bourquin, A. and Mayhew, R. 1999. "Man and Mollusc Uses of Shell-Bearing Molluscs-Past, Present and Future", **(http://www.manandmollusc.net/advanced_uses/advanced_uses- print.html)**.

Carpenter, K. E.; Krupp, F.; Jones, D. A.; Zajonz, U. 1977. **Living Marine Resources of Kuwait, Eastern Saudi Arabia, Bahrain, Qatar, and the United Arab Emirate.** Food and Agriculture Organization of the United Nations, Rome.

Cartwright, C. and Glover, E. 2002. "Ra'as al-Hadd: reconstructing the coastal Environment in the 3rd Millennium BC and later", **Journal of Omani Studies,** 12: pp. 14-53

Cleuziou, S. Reade, J. and Tosi, M. 1990. **The Joint Hadd project**.

Coppa, A., Macchiarelli, R. Salvatari, S. and Santini, G. 1985. "The prehistoric Graveyard of Ra's al-Hamra (RH5). (A short preliminary report on the 1981-83 excavations)", **Journal of Omani Studies**, vol. 8, part 1, pp. 97-102.

de Cardi, B., Bell, R.D. and Starling, N. J. 1979 "Excavations at Tawi Silaim and Tawi said in the Sharqiya, 1978", **Journal of Omani Studies**, vol. 5, pp. 61-94.

de Cardi, B., Doe, D.B. and Roskams, S.P. 1977. "Excavation and Survey in the Sharqiyah, Oman, 1976", **Journal of Omani Studies,** vol. 3, Part I, pp. 17- 33.

de Cardi, B., Stephen Collier and Doe, D. B. 1976. "Excavations and Survey in Oman, 1974-1975", **Journal of Omani Studies,** vol. 2-1976, pp.101-147.

Dimbleby, G. 1977. **Ecology and Archaeology, Studies in Biology no. 77,** Edward Arnold (publishers) LTD.

Durante, S. and Tosi, M. 1977. "A Ceramic shell Middens of Ra's al-Hamra: a Preliminary Note", **Journal of Omani Studies,** vol. 3, part 2, pp.137-161.

Ramel, G. 2012. "The Phylum Mollusca", (http://www.earthlife.net/inverts/mollusca.html).

ElMahi, A.T. (forthcoming). The Bedouins of Oman: An analogy of ancient adaptations.

ElMahi, A.T. and Al Jahwari, N. 2005. "Graves at Mahleya in Wadi Andam (Sultanate of Oman) a view of a Late Iron Age and samad period death culture", **Proceedings of the Seminar of Arabian Studies**,vol. 35, Archaepress Oxford.

ElMahi, A.T. and Ibrahim, M. 2003. "Two seasons of investigations at Manal site in the Wadi Samayil area, Sultanate of Oman", **Proceedings of the Seminar of Arabian Studies**,vol. 33. Archaepress Oxford.

ElMahi, A.T. 1999. "Mollusc Harvesting along the Coasts of Oman: A supplementary diet". **Proceedings of the Seminar of Arabian Studies** vol. 29, pp. 45-53. BREPOLS.

ElMahi AT. 2000. "Traditional fish preservation in Oman: the seasonality of a subsistence strategy", **Proceedings of the Seminar of Arabian Studies** 30: Pp.99–113.

ElMahi, A.T.2002 . "The spiny tailed lizard: A constituent of the occasional diet of inland traditional societies in Oman", **Proceedings of the Seminar of Arabian Studies**, vol. 32, pp. BREPOLS.

Fairbridge, R.W. 1976. "Shellfish-eating Preceramic Indians in coastal Brazil", **Science** 191, pp. 353-358.

Frifelt, K. 1959. "A Possible link between the Jemdet Nasr and the Umn an-Nar Graves of Oman", **Journal of Omani Studies** I, pp. 57-80.

Frifelt, K. 1971. "Jamdat Naser Graves in Oman", **KUML** 1970, PP. 355-383.

Hastings, A. Humphries, J. H. and Meadow, R. H. 1975.

"Oman in the Third Millennium BCE", **JOS**. Vol. I, 1975, pp. 9-15. Hirst, (http://archaeology.about.com/od/

boneandivory/a/shellmidden.htm).

Katherine, B. and Museum, L. 1997. **The Spirit of Ancient Peru: Treasures from the Museo Arqueológico Rafael Larco Herrera**. New York.

Mannino, M. A. and Thomas, K. D. 2002. "Depletion of a Resource The Impact of Prehistoric Human Foraging on Intertidal Mollusc Communities and Its Significance for Human Settlement, Mobility and Dispersal", **World Archaeology**, Vol. 33, Feb. No. 3, Ancient Ecodisasters, pp. 452-474.

Meighan, C. W. 1963. "Molluscs as food remains in archaeological sites". In: Brothwell, D. and Higgs, E. (Eds.) **Science in Archaeology**. Pp. 415-422. New York.

Mery, S. and Charpentier, V. 2002. "Around Suwayh (Ja'alan): a summary of some recent discoveries from coastal shell-middens of eastern Arabia", **Journal of Oman Studies** vol. 12, pp. 181-185.

Office of the Adviser to His Majesty the Sultan for cultural Affairs. 2008. **Khor Rori (Sumhutam)**, Sultanate of Oman.

Oxford English Dictionary 2009. Oxford University Press.

Phillips, G. S. and Wilkinson 1982. "Recently Discovered Shell Middens near Quriyat", **JOS**. 5, 1979, PP 107-110.

Philips, C. 2002. "Prehistoric middens and a cemetery from the southern Arabian Gulf". In: S. Cleuziou and M. Tosti and J. Zarins (Eds.), **Essays in the late prehistory of the Arabian Peninsula**. pp. 169-186, Rome: Series Orientale Roma XCIII, IsIAo.

Safer, J. F. and Gill, F. M. 1982. **Spirals from the Sea: An Anthropological Look at Shells.** Clarkson N Potter, Inc.

Séfèriadès, M. L. 2009. "Spondylus and long-distance trade in prehistoric Europe". In: D. W. Antony and J. Y. Chi. (Eds.), **The lost world of old Europe: The Danuabe valley, 5000-3500 BC,** pp. 178-191, Princeton, N. J., Woodstock. Princeton University

Saul, M. 1974. Shells: **An Illustrated Guide to a Timeless and Fascinating World**, Doubleday & Company, Inc. New York.

The Joint Hadd Project Dec. 1985. Summary report on the first season. (Unpublished Report).

Salvatori, S. 1996. "Death and Ritual in a population of Coastal Food Foragers in Oman". In: G. Afanas'ev, S. Cleuziou, J.R. Lukacs and M. Tosti (Eds.), **The Prehistory of Asia and Oceania**. Pp. 205-222. Forli: ABACO.

Stix, H. M. and Abbot, T. 1984. **The Shell: Gift of the Sea**, Abradale Pree/Harry N. Abrams Inc., New York.

Thomas, R. and Potts, D. T. 1996. "Atacamite pigment at Tell Abraq in the early Iron Age", **Arabian archaeology and epigraphy**. Vol. 7, Pp. 13-16.

«Whaleback Shell Midden». **Whaleback Shell Midden**. Retrieved 2006-05-11).

Wilkens, B. 2002. "The consumption of animal products at Sumhuram". In: **Khor Rori Report 1. Arabia Antica 1.** (Ed.) Alessandra Avanzini Edizioni Plus Universita di Pisa.

Yesner, D. R. 1975. "Maritime hunters-gatherers: Demographic and Biological Models", **Mimeographed Papers**.

Zarins, J. 2001. **Dhofar the land of Incense** (Ed.) M. Ibrahim, A. Tigani ElMahi and J. Own. Muscat.